### الفصل الثاني

عصــــر المؤلف -رحمه الله-

أولاً: الحالة السياسية.

ثانياً: الحالة الاجتماعية.

ثالثاً: الحالة العلمية.

أولاً: الحالة السياسية:

يعتبر العصر الذي عاش فيه الكوراني -رحمه الله- من عصور الضعف السياسي الذي مرت به الأمة -في غالب أرجائها- فقد كانت ممزقة الأشلاء موزعة الإمارات، وذلك بعد أن ضعفت الخلافة العباسية ثم سقطت على أيدي التتار، كما سقطت بلاد الأندلس في أيدي النصارى، وكان يغلب على هذا العصر موجات التغير في الحكم وعدم الهدوء والأمن، والتنافر بين تلك الإمارات، فكانت بلاد المغرب وشمال أفريقيا والعراق وبلاد المشرق تحكم بدول مختلفة متصارعة -في الغالب- تقوم دولة وتسقط أخرى([[1]](#footnote-0)).

في هذا القرن كان المماليك والعثمانيون أبرز قوتين تحكمان العالم الإسلامي؛ المماليك في مصر والشام وأطراف الجزيرة والحجاز، والعثمانيون الذين بدأت دولتهم تسترد عافيتها بعد نهاية الصراع مع التتار في مطلع هذا القرن.

أما المماليك فقد زاد من أهمية حكمهم أن الخلافة العباسية قد انتقلت إلى مصر بعد سقوطها في بغداد على أيدي التتار عام 656هـ، وكانت خلافة العباسيين اسمية والسلطة ومقاليد الأمور بأيدي المماليك([[2]](#footnote-1)).

امتاز هذا العهد من الحكم المملوكي بالاضطراب والقلق وكثرة الفتن وتغيير السلاطين حتى كان منهم من يحكم فترة يسيرة جداً لا تتجاوز الأشهر أو الأيام كالسلطان أحمد بن المؤيد([[3]](#footnote-2)) والسلطان محمد بن طَطَر([[4]](#footnote-3)) والسلطان يوسف بن بَرْسباي([[5]](#footnote-4))، وكان من أسباب هذه الظاهرة الاستكثار من المماليك وتدخلهم في السلطة مع استضعاف بعض السلاطين إما لعدم قوتهم أو لصغر سنهم حتى أن منهم من كان يلي السلطة وعمره سبع سنوات، بل كان منهم من يلي وعمره أقل من سنتين([[6]](#footnote-5)) مما أتاح فرصة أكبر للمماليك وقادة الجيش للتدخل في السلطة وخلع بعض الحكام وتنصيب آخرين.

ولذا فإنني سأقتصر على ذكر أهم سلاطين المماليك في هذه الفترة:

**1- الملك المؤيد شيخ بن عبدالله المحمودي،** ولد سنة 770هـ تقريباً، وتولى أمر السلطة بعد الخليفة المستعين بالله عام 815هـ، وكان ذكياً متقناً لفنون الفروسية والحرب، محباً للعلم والعلماء، معه إجازة بصحيح البخاري من سراج الدين البلقيني([[7]](#footnote-6)) فكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً، كانت الدولة في عهده تعيش حالة من الاضطرابات والفتن -كما هو الغالب على الأحوال في تلك الأزمنة-، استمر في الحكم حتى توفي عام 824هـ([[8]](#footnote-7)).

**2- الملك الأشرف بَرْسباي،** تولى أمر الملك عام 825هـ، وامتازت مدة حكمه بالهدوء النسبي، قال ابن حجر: "بحيث أنه لم يقم عليه أحد إلا وقُتل من غير أن يجهز لـه عسكراً أو يباشر لـه حرباً"([[9]](#footnote-8)).

وفي أيامه فُتحت قبرص وأُسر ملكها بعد أن كانت في أيدي الصليبيين، كان عظيم العناية بالعلم وأهله، وقد أنشأ عدة مدارس وجعل لها المدرسين والأوقاف، استمر في الملك حتى توفي عام 841هـ([[10]](#footnote-9)).

**3- الملك الظاهر أبوسعيد جَقْمق،** ولي أمر السلطة بعد خلع الملك العزيز يوسف بن برسباي عام 842هـ، وكان ديناً كريماً متواضعاً محباً للعلماء والفقهاء، عفيفاً عن المنكرات([[11]](#footnote-10))، خرج عن طاعته بعض الأمراء فحاربهم حتى استتب لـه الأمر وهدأت الأحوال، عاش الشيخ الكوراني في كنفه وكان من خواصه حتى خرج من مصر([[12]](#footnote-11))، توفي عام 857هـ([[13]](#footnote-12)).

**4- الملك الأشرف قايتباي المحمودي،** تولى أمر السلطة عام 872هـ، وكان مكرماً للعلماء محباً لمجالستهم، بنى مسجد الخيف بمنى، واعتنى بالمشاعر في مكة المكرمة فأجرى فيها المياه، ووضع القباب ليستظل بها الحجاج وجدد المساجد، وبنى المسجد النبوي بعد أن وقع عليه الحريق، كما بني عدداً من المدارس في مكة والمدينة ومصر وأوقف عليها الأوقاف ورتب لها المدرسين، وقد استمر في الحكم حتى وفاته عام 901هـ([[14]](#footnote-13)).

هؤلاء هم أبرز حكام المماليك في تلك الفترة، أما فيما يتعلق بالدولة العثمانية فقد بدأت في مرحلة القوة والتوسع بعد أن تحررت من ضربات المغول الذين كادوا أن يقضوا عليها، فكانت الدولة -بصفة عامة- في ازدياد من حيث رقعتها المكانية ومن حيث تنظيمها وتقدمها، وأما الذين تولوا مقاليد الحكم في تلك الفترة فهم:

**1- السلطان محمد جلبي بن السلطان بايزيد،** المولود عام 781هـ، خاض في أول أمره صراعات مع إخوانه حتى انفرد بالسلطة عام 816هـ، وغلب على عهده الفتن والاضطرابات، وكانت الدولة آنذاك تسيطر على بلاد تركيا وجزء من شرق أوربا، استمر في السلطة حتى توفي عام 824هـ([[15]](#footnote-14)).

**2- السلطان مراد الثاني بن السلطان محمد،** ولد عام 806هـ، وتولى السلطة بعد موت أبيه عام 824هـ، وكان عمره ثمان عشرة سنة، توسعت الدولة في عهده فدخل فيها كثير من الولايات الصغيرة في آسيا كما استولت على مناطق من أوربا في ألبانيا والمجر وصربيا، وفي عهده انتقل الكوراني إلى بلاد العثمانيين فأكرمه السلطان مراد واحتفى به([[16]](#footnote-15))، توفي عام 855هـ([[17]](#footnote-16)).

**3- السلطان محمد الثاني الفاتح بن السلطان مراد([[18]](#footnote-17)).**

**4- السلطان بايزيد الثاني بن السلطان محمد الفاتح،** ولد عام 851هـ، وتولى الحكم بعد موت أبيه عام 886هـ، واشتغل أول أمره بالقضاء على فتنة أخيه الأصغر (جم) الذي نازعه الأمر وأراد أن تكون السلطة لـه حتى انتهى أمره وتم إخماد الفتنة([[19]](#footnote-18))، استمر السلطان بايزيد في الحكم إلى أن نزل عنه لابنه سليم الأول عام 918هـ([[20]](#footnote-19)).

ثانياً: الحالة الاجتماعية:

كانت الحالة السياسية المضطربة في العالم الإسلامي تلقي بظلالها على الحياة الاجتماعية، وكان اختلال الأمن وتغير السلاطين وكثرة الحروب يؤثر سلباً على أنماط الحياة في المجتمعات الإسلامية.

وإذا أخذنا البلاد التي يسيطر عليها المماليك كأنموذج لمعرفة الحالة الاجتماعية وجدنا أن الناس كانوا يعيشون مظاهر الظلم والاضطهاد والفقر والعوز، وكانوا ينظرون إلى المماليك وهم يخلعون أو يقتلون سلطاناً وينصبون آخر وهم لا حول لهم ولا قوة أو مشاركة في صنع القرار، بل كان غالبهم من العمال والفلاحين الذين يكدحون في طلب لقمة العيش.

وكان النظام الإقطاعي هو النظام المعمول به في مصر؛ فكان السلطان يُقطع لأحد الأمراء أو القواد قطعة من الأرض يكون الناتج منها عائداً إلى جيبه الخاص([[21]](#footnote-20))، بل لم يقتصر الإقطاع على الأرض بل أصبح السلطان يقطع جزية مجموعة من أهل الذمة أو ضرائب المكوس([[22]](#footnote-21)).

وتبعاً لتقلب الحياة السياسية فقد كان الإقطاع متقلباً فقد يغضب السلطان على أحد الأمراء فيأخذ منه إقطاعه ويمنحه لشخص آخر، وقد ينتقل الحكم إلى سلطان آخر فيعاد توزيع الإقطاع مرة أخرى ليمنح أتباع السلطان الجديد نصيبهم منه.

لقد كان الخلل والفساد الذي يحتويه نظام الإقطاع هو حجر الزاوية في فساد الحياة الاجتماعية في دولة المماليك.

كما انتشرت الطبقية في المجتمع إذ أن المماليك كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم طبقة عسكرية مميزة فلذا لم يختلطوا بطبقات المجتمع الأخرى، كما حفل المجتمع بطبقات أخرى منها طبقة الفلاحين الكادحين الذين يشكلون نسبة كبيرة من المجتمع إلا أنهم مغلوبون على أمرهم، قد أثقلت كواهلهم الضرائب والمغارم الباهظة التي تفرض عليهم([[23]](#footnote-22)).

ورغم اهتمام المماليك بكثير من الجوانب الاقتصادية المتمثلة بالتجارة والزراعة والعمران وبعض الصناعات إلا أنه قد صاحب ذلك كثير من المظالم الاجتماعية التي كانت تقع على عامة الشعب حتى إنه قد يُسخر بعض العمال والصناع لبناء بعض المدارس أو المساجد السلطانية دون أجرة أو بأجرة لا تساوي ما قاموا به من عمل، إضافة إلى ما كان ينتشر في المجتمع من الرشاوي والصرف ببذخ وإسراف على الحياة الشخصية والمناسبات الخاصة وخصوصاً بين الأمراء وقادة العساكر([[24]](#footnote-23)).

ورغم هذه المظالم المتفشية فقد كان هناك العديد من القادة والأمراء الذين لا يرضون بها بل يسعون في إزالتها والقضاء عليها([[25]](#footnote-24)).

ومن جهة أخرى فقد انتشر في المجتمع الدروشة والبدع والخرافات والموالد، وكان يشارك فيها كل طبقات المجتمع، كما انتشرت الصوفية انتشاراً واسعاً، وعملت لها الطرق والزوايا والمدارس وأوقفت عليها الأوقاف([[26]](#footnote-25)).

هذا العرض بمثابة الأنموذج لما يجرى في بقية البلاد الإسلامية، فلم تكن بلاد المغرب العربي بأحسن حالاً إذ أن تعاقب الولاة وضعف الأمن ألقى بظلال سوداء على الحياة الاجتماعية، والعراق وخراسان وما وراءها من بلاد الشرق أصابها ما أصاب غيرها، إذ أن وقوعها تحت هجمات المغول أو تحت حكم الدولة الصفوية الشيعية أو تحت حكم الدويلات الصغيرة المتعاقبة كان لـه أبلغ الأثر في إضعاف الأمن والاستقرار الذي انعكس على مظاهر الحياة الاجتماعية، وأشاع كثيراً من الفوضى والضعف.

ثالثاً: الحالة العلمية:

كان عصر الشيخ الكوراني -رحمه الله- وما قبله عصر انتقال مراكز العلم والأدب من بغداد وبخارى ونيسابور وبلاد الأندلس إلى مصر والشام على اختلاف مدنها- وذلك لما أصاب بغداد وبلاد الشرق من هجمات مغولية شرسة سقطت على إثرها الخلافة في بغداد، ولما حلَّ بالأندلس من ويلات الحروب الصليبية - فأضحت القاهرة والإسكندرية وأسيوط وبيت المقدس ودمشق موئلاً لطلاب العلم والراغبين فيه، فقامت على إثر ذلك حلق العلم التي يعمرها كبار العلماء والأدباء، كما أنشئت المدارس التي تعد بالعشرات على اختلاف مذاهبها وأغراضها للتفسير والحديث والفقه الحنفي والفقه المالكي والفقه الشافعي والفقه الحنبلي، كما صاحب ذلك إقامة العديد من المكتبات التي تضم الكثير من الكتب النفيسة([[27]](#footnote-26)).

وأما في البلاد العثمانية فقد صاحب التوسع والفتوحات التي تقوم بها الدولة الاهتمام بالجوانب العلمية وبناء المدارس وجعل الأوقاف لها وترتيب المدرسين، وخصوصاً في عهد محمد الفاتح، فبعد فتح القسطنطينية بنى فيها العديد من المدارس والجوامع([[28]](#footnote-27)).

وقد تميز هذا العصر -القرن التاسع- بظهور مجموعة من العلماء والأدباء الذين كان لهم أبلغ الأثر في إثراء الحياة العلمية والفكرية في كافة التخصصات سواء الدراسات القرآنية أو الحديثية أو الفقهية، أو اللغوية أو التاريخية، ومن هؤلاء العلماء الذين ازدان بهم هذا العصر:

- أبوالعباس أحمد بن علي القلقشندي(ت 821هـ)([[29]](#footnote-28)).

- ولي الدين أحمد بن عبدالرحيم ابن العراقي (ت826هـ)([[30]](#footnote-29)).

- أبوالخير شمس الدين محمد بن محمد الجزري (ت833هـ)([[31]](#footnote-30)).

- تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي (ت845هـ)([[32]](#footnote-31)).

- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ)([[33]](#footnote-32)).

- بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت855هـ)([[34]](#footnote-33)).

- صالح بن عمر بن رسلان البلقيني (ت868هـ)([[35]](#footnote-34)).

- بدر الدين محمد بن أبي بكر بن قاضي شهبة (ت874هـ)([[36]](#footnote-35)).

- جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري بردي (ت874هـ)([[37]](#footnote-36)).

- محي الدين محمد بن سليمان الكافيجي (ت879هـ)([[38]](#footnote-37)).

- برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت885هـ) .

- شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت902هـ).

- جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (911هـ)([[39]](#footnote-38)).

وقد كان لهؤلاء الأعلام وغيرهم الأثر الكبير على الحياة العلمية في ذلك العصر، وذلك من خلال دروسهم التي كانت تعج بها المدارس والجوامع أو من خلال مصنفاتهم التي ألفوها في سائر التخصصات العلمية والأدبية.

1. () انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (4/195، 253، 338، 379) (7/727). [↑](#footnote-ref-0)
2. () انظر: تاريخ المماليك البحرية ص(243)، موسوعة التاريخ الإسلامي (5/244). [↑](#footnote-ref-1)
3. () أحمد بن المؤيد شيخ، أقيم في السلطة بعد والده المؤيد شيخ عام 824هـ، ولقب بالملك المظفر، وكان عمره يومئذ سنتين ثم خلع بعد أشهر.

   انظر: وجيز الكلام (2/465)، حسن المحاضرة (2/121). [↑](#footnote-ref-2)
4. () تولى السلطة بعد والده الملك الظاهر ططر في ذي الحجة عام 824هـ، وكان يلقب الملك الصالح، ثم خلع من السلطة في ربيع الآخر عام 825هـ.

   انظر: النجوم الزاهرة (14/232)، حسن المحاضرة (2/121). [↑](#footnote-ref-3)
5. () تولى الملك بعد أبيه الملك الأشرف برسباي بعهد منه في ذي الحجة عام 841هـ إلى أن خلع في ربيع الأول عام 842هـ.

   انظر: وجيز الكلام (2/562)، نزهة النفوس والأبدان (3/422). [↑](#footnote-ref-4)
6. () راجع الحاشية رقم (1) في أعلى الصفحة. [↑](#footnote-ref-5)
7. () سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقيني، شيخ الإسلام، أحد الأعلام، ولد عام 724هـ، مهر في الحديث والفقه والأصول وغير ذلك، وتخرج به جماعات منهم الحافظ ابن حجر العسقلاني، توفي عام 805هـ.

   انظر: إنباء الغمر (5/107)، شذرات الذهب (7/51). [↑](#footnote-ref-6)
8. () انظر: السيف المهند ص(205)، إنباء الغمر (7/435)، النجوم الزاهرة (14/1)، الضوء اللامـع (3/308)، حسن المحاضرة (2/121). [↑](#footnote-ref-7)
9. () إنباء الغمر (9/19). [↑](#footnote-ref-8)
10. () انظر: النجوم الزاهرة (14/242)، نزهة النفوس والأبدان (3/5)، الضوء اللامع (3/8)، وجيز الكلام (2/554)، حسن المحاضرة (2/121). [↑](#footnote-ref-9)
11. () انظر: مورد اللطافة (2/161). [↑](#footnote-ref-10)
12. () راجع ما سبق ص(7). [↑](#footnote-ref-11)
13. () انظر: النجوم الزاهرة (15/258)، وجيز الكلام (2/674)، بدائع الزهور (2/198)، حسن المحاضرة (2/121). [↑](#footnote-ref-12)
14. () انظر: النجوم الزاهرة (16/394)، مورد اللطافة (2/183)، الضوء اللامع (6/201)، بدائع الزهور (3/3)، حسن المحاضرة (2/122). [↑](#footnote-ref-13)
15. () انظر: المنح الرحمانية ص(30)، التحفة الحليمية ص(51)، تاريخ الدولة العلية العثمانية   
    ص(149). [↑](#footnote-ref-14)
16. () راجع ص(7-8). [↑](#footnote-ref-15)
17. () انظر: المنح الرحمانية ص(36)، التحفة الحليمية ص(55)، تاريخ الدولة العلية العثمانية   
    ص (153). [↑](#footnote-ref-16)
18. () سبقت ترجمته ص(15). [↑](#footnote-ref-17)
19. () وقد توفي (جم) عام 900هـ. انظر: تفاصيل أحداثه مع أخيه في المراجع التالية. [↑](#footnote-ref-18)
20. () انظر: المنح الرحمانية ص(55)، التحفة الحليمية ص(68)، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص  
    (179). [↑](#footnote-ref-19)
21. () انظر: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ص(19). [↑](#footnote-ref-20)
22. () انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (5/268). [↑](#footnote-ref-21)
23. () انظر: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ص(24). [↑](#footnote-ref-22)
24. () انظر: أحوال العامة في حكم المماليك ص(344-346). [↑](#footnote-ref-23)
25. () المرجع السابق ص(344-396). [↑](#footnote-ref-24)
26. () انظر: العصر المماليكي ص(339)، تاريخ المماليك ص(163). [↑](#footnote-ref-25)
27. () انظر: صورة الحياة العلمية في القرن التاسع ص(33). [↑](#footnote-ref-26)
28. () انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص(178)، وراجع ما تقدم ص(16). [↑](#footnote-ref-27)
29. () انظر: الضوء اللامع (2/8). [↑](#footnote-ref-28)
30. () انظر: المرجع السابق (1/336). [↑](#footnote-ref-29)
31. () انظر: المرجع السابق (9/255)، شذرات الذهب (7/204). [↑](#footnote-ref-30)
32. () سبقت ترجمته ص(11) في مبحث شيوخ المؤلف. [↑](#footnote-ref-31)
33. () سبقت ترجمته ص(12) في مبحث شيوخ المؤلف. [↑](#footnote-ref-32)
34. () انظر: الضوء اللامع (10/131)، نظم العقيان ص(174). [↑](#footnote-ref-33)
35. () انظر: نظم العقيان ص(119). [↑](#footnote-ref-34)
36. () انظر: المرجع السابق ص(143). [↑](#footnote-ref-35)
37. () انظر: الضوء اللامع (10/305)، شذرات الذهب (7/317). [↑](#footnote-ref-36)
38. () انظر: الضوء اللامع (7/259). [↑](#footnote-ref-37)
39. () انظر: المرجع السابق (4/65)، شذرات الذهب (8/51). [↑](#footnote-ref-38)